رقمنة التراث في الفضاء السيبراني واشكاليّة الهويّة

هدى كحلي قلاب

جامعة قرطاج، تونس – جامعة باريس 8، فرنسا

ملخص

تلعب المعالم التاريخية دور الوسيط بين الأجيال، وفي ظل نظام عالمي رقمي وتراجع الإقبال على الكتاب كوعاء كلاسيكي اتنشر التراث المادي في الفضاء السيبراني، كما أن هذا التراث لا يكتسب قيمة إلاّ من خلال نشاط إنساني ضروري يكون أحيانا مضنيا ومعقّدا للاعتراف بمكوّنات تلك القيمة تاريخيّا واجتماعيّا وثقافيّا. حيث يصبح هذا التراث المادي مجال اتّصال في حركة تثقيفيّة للمجموعة المحليّة المالكة لذلك التراث، ومحاولة نشره لدى الأجانب وبصفة أعم لدى الآخر أينما كان موقعه في فضاء اتّصالي عالمي معولم مفتوح لا حدود جغرافية توقفه ولا حواجز ثقافية وحضاريّة ودينيّة تحدّ من حركة سيره.

فكيف ساهمت آليات الرقمي في إيجاد تمظهرات جديدة للهويّة عبر تثمين التراث وتحويله إلى تراث افتراضي لا مادّي ولا مكاني ولا زماني؟

تبقى عمليّة تثمين التراث المطلوبة رهينة النشاط الجماعي، وخاصة الجمعياتي منه، بما يعطي أدوار جديدة للمجتمع المدني في علاقته بالتراث. إنّ من بين أهداف مقالنا جعل هذا النشاط توجّها شعبيّا عبر الفضاء السيبراني في أشكال متعدّدة.

نحاول من خلال هذا المقال تحليل الأبعاد الاجتماعية لهذه العملية مفترضين أنّها يجب أن تشمل القاعدة الاجتماعية من خلال الجمعيات العلمية والأهلية ثم تعميم معرفة التراث والوعي به لدى الأفراد.

كلمات مفتاحية: رقمنة التراث، الفضاء السيبراني، الهوية، تثمين التراث.

Résumé :

L'identité est généralement définie comme l'ensemble des caractéristiques et des attribues qui font qu'un individu ou un groupe se perçoivent comme une entité spécifique et qu'ils sont perçus comme telle par les autres. L'identité pose la question du territoire et comme corollaire de la migration. Dans cette situation, l'individu a tendance à se rattacher aux caractéristiques les plus représentatifs de son identité que nous pouvons appeler « refuges » et à les véhiculer aux autres en même temps. Ce sont les composantes sources de son fierté, les édifices de ses ancêtres, c'est-à-dire, son patrimoine. Le contexte moderne actuel, nous impose une relecture de cette situation qui est resté classique depuis l'histoire moderne de l'humanité et jusqu'à la présence des TIC qui se traduit peu à peu à une culture numérique. Comment se présente le nouveau paramétrage des frontières dans cette ère du numérique ? Quel rôle assuré par les technologies au service de la valeur affective du patrimoine et aussi de la représentation et de la médiation ?

Mots clés : Numérisation du patrimoine, cyberspace, Identité, valorisation du patrimoine.

مقدمة:

تحتفظ ذاكرة الشعوب، دائما، بمكوّنات موروثها المادي واللاّمادي. وتحظى المعالم التاريخية داخل هذه الذاكرة بصمودها أمام تعاقب الأزمان وقساوة الطبيعة، وهي تلعب دور الوسيط بين الأجيال، حيث تقيم الدليل على الآثار الباقية لسلف كل شعب.

أصبحت الآثار اليوم تمثّل رموزا للهويّة، بل إنّ وجودها المادي، والذي يسير طبيعيّا إلى الاندثار، لم يعد شرطا من شروط حضورها بتلك الذاكرة، حيث تناغمت طرق عرضها مع الثورة الرقمية. وقد أضحى المؤرخ وعالم الآثار في مواجهة

تساؤلات جديدة في ظل نظام عالمي رقمي يحيط بهما، وقلب علاقة المتلقي بكل ما هو مادي. إنّ هذه العلاقة الجديدة تمسّ، على حدّ السواء، حضور المَعْلَم الرّمز في حد ذاته، وترتبط بمسائل وطرق التلقّي بعد تراجع الإقبال على الكتاب كوعاء كلاسيكي لإيصال نتائج أبحاثها وتصوّراتها: المؤرخ وعالم الآثار. إنّ نشر التراث المادي في الفضاء السيبراني سيظل أساسا رهين الإهتمام بذلك التراث من ناحية البحث والحفريات. فإذا انطقنا من متابعة وضع وحالة عديد المواقع الأثريّة بالبلاد التونسية، التي بقيت في شكل أحجار مبهمة أو مؤشّرات لمواقع لم تخضع إلى حفريات، فإنّما ظلّت مدفونة بما قد تحتوي عليه من شواهد وثراء.

إنّ هذه المواقع، وحتى في غياب الاهتمام اللاّزم، تشكّل دلائل على مرور مهارات ومعارف وتقاليد وثقافة، ممّا أثّرت بالضرورة في ظرفها التاريخي. إنّ هذه المواقع التي لا تتنزل على خارطة الزوّار الأجانب بالبلاد التونسيّة، وهي قبل السكان المحلّيين، عادة ما تسكنها الخرافة، تبقى ببساطة خارج الحياة العامة. ونقصد هنا ما يشير إليه "جورغن هابرماس" Jurguen Habermas " La sphère publique"[1]. يحيلنا إلى حقيقتين: تتمثّل الحقيقة الأولى في أنّ اكتساب الموروث واستبطانه داخل الثقافة ليس بعمليّة تلقائيّة أو بسيطة، وتتثمّل الحقيقة الثانية في أنّ ما شيّده الأسلاف لا يكتسب قيمة إلاّ من خلال نشاط انساني ضروري يكون أحيانا مضنيا ومعقّدا للإعتراف بمكوّنات تلك القيمة تاريخيّا واجتماعيّا وثقافيّا.

يجعلنا هذا الواقع أمام إشكاليّة حقيقة التراث المادي وعلى الأشكال الجديدة للتصرّف في هذا التراث بحيث يتحوّل إلى تراث لا مادّي مرقمن وكيف ساهمت آليات الرقمي في إيجاد تمظهرات جديدة للهويّة عبر تثمين التراث وتحويله إلى تراث افتراضي لا مادّي ولا مكاني ولا زماني؟

نفترض في سياق هذه الإشكالية أنّ التراث المادي في تونس يتراوح بين المشروع الحالم بالرقمنة وبين الواقع المكبل بالإجراءات الإداريّة حيث أنّ اكتساب الموروث واستبطانه داخل الثقافة ليس بعمليّة تلقائيّة أو بسيطة وما شيّده الأسلاف لا يكتسب قيمة إلاّ من خلال نشاط سام ضروري يكون أحيانا مضنيا ومعقّدا للإعتراف بمكوّنات تلك القيمة تاريخيّا واجتماعيّا وثقافيّا.

[1] - Habermas Jürgen, L’espace public : archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise. Réédition. Paris : Payot, 1993, p.324.

الأشكال الجديدة للتصرّف في التراث المادي

يقول مؤسس علم الأنتروبولوجيا في القرن العاشر، عبد الرحمان البيروني في كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية" "إنّ كل أمّة تستعمل تأريخا تنفرد به[2]". إلاّ أنّنا اليوم بصفة أوليّة نستعمل تأريخا كونيّا موحّدا كمظهر من مظاهر العولمة التي أصبحت تؤثّر على تفاصيل حياتنا وأنشطتنا. وامتدّ معنى العولمة إلى أكثر من مجال بما في ذلك مجال التراث. فأصبحنا نتحدّث عن تراث الإنسانيّة والموروث العالمي. كما زاد تطوّر العالم الرقمي في احتواء الشعوب والثقافات داخل شبكات الاتّصال، وظهرت مفاهيم مثل الإنسانيّة الرقميّة " Digital humanity" وغيرها. إنّ اعتراف الأجيال بالآثار الماديّة لسابقيها يعدّ أول خطوة لتثمين تلك الآثار حيث أنّ المحافظة على المعالم الباقية والمعالم الأثريّة وانجاز المتاحف يعبّر عن نيّة الأجيال اللاّحقة في المحافظة على ذاكرتها، وكذلك نشرها بشيء من الإعتزاز.

وهو ما يدل على وجود قيمتين اثنتين للتراث. تتعلق القيمة الأولى بالجانب العاطفي الذي يربط الشعوب بموروثها، ويترسّخ في بناء هويّتها، وذلك لنوع من "التبنّي المعكوس" مثلما عبّر عليه "جون بويون" " Jean Pouillon[3]" "Filiation inversée" حيث بيّن كيف تتبنى الأجيال ما أنجزه أسلفها كمرحلة ضروريّة تمر عبر مراحل تدوين أو توثيق الموروث حيث يصبح وجودا قائم الذات. أمّا القيمة الثانية فهي ذات طابع تواصلي، حيث يصبح هذا التراث المادي مجال اتّصال في حركة تثقيفيّة للمجموعة المحليّة المالكة لذلك التراث، ومحاولة نشره لدى الأجانب وبصفة أعم لدى الآخر أينما كان موقعه في فضاء اتّصالي عالمي معولم مفتوح لا حدود جغرافية توقفه ولا حواجز ثقافية وحضاريّة ودينيّة تحدّ من حركة سيره. يجدر بنا أن نتوقف قليلا عند محدوديّة تدخّل الدولة في هذا المجال، على الرغم من ضرورة تكفّلها بإنجاز البنى التحتيّة للحفاظ ماديّا على التراث وإتاحة زيارة المعالم بشتّى الوسائل الممكنة. تلجأ عامة الدول إلى اعتماد إجراء "الترتيب أو التصنيف" " Le classement" بقائمة المواقع الأثرية حتى توفر وضعية قانونية معيّنة لتلك المواقع وتتمكن بالتالي من حمايتها. إلاّ أنّ هذا الإجراء في حدّ ذاته، ليس كافيا في عمليّة تثمين التراث. كما أنّه قد لا يخلو من مظاهر البيروقراطية أو التعسّف أو الفساد. وتبقى عمليّة التثمين المطلوبة رهينة النشاط الجماعي، وخاصة الجمعياتي منه، بما يعطي أدوار جديدة للمجتمع المدني في علاقته بالتراث. إنّ من بين أهداف مقالنا جعل هذا النشاط توجّها شعبيّا عبر الفضاء السيبراني في أشكال متعدّدة سنتناولها تباعا. من

[2]- Al-Biruni, *Al-Atar al-baqiya ‘an al-qurun al-haliya (Traces des siècles passés)* , rédigé vers l'an mille Copie du XVIe siècle, p51

3 - Pouillon Jean, Fétiches sans Fétichisme, Paris, François Maspero, 1975, 351 pages

بين هذه الأشكال أوّلا تجريد الأوعية (أو المحامل) من طابعها المادي، وترسيخ قدم المعالم الإفتراضيّة والمعالم المزدوجة وغيرها من الأشكال داخل مجتمع المعرفة والمعلومات.

تستوجب معالجة الإشكاليّة المطروحة التعرّض إلى مفهوم رئيسي وهو باللغة الفرنسية «La patrimonialisation ». يقوم على أن العملية تتم من خلالها اسداء صفة الموروث. ومثلما ذكر ابن خلدون في كتاب المقدمة، من أنّ "التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، ولكن في باطنه نظر وتحقيق" فإن هذه العملية هي في الواقع عملية في مجموعة من المقاييس والقيم تجعل من مجموعة ما تقرر تصنيف معلم ما ضمن موروثها.

يعرّف jean Davallon هذا المفهوم كما يلي: "هو عبارة عن سيرورة اجتماعية تقوم من خلالها كينونات اجتماعية ذات شرعية تتوافق عبر حراك متبادل ومتكامل على اسداء صفة التراث لشيء ما أو لفضاء هندسي أو حضري أو طبيعي أو ممارسة اجتماعية. وذلك عبر الاعتراف لها بمجموعة خصائص ومقوّمات تحدّدها وتتقاسمها تلك الكينونات في مرحلة أولى ثم بقية الأفراد في مرحلة ثانية من خلال ميكانيزمات مؤسساتية فردية أو جماعية تكون ضرورية لتوفير ديمومتها، أي إعطائها شرعية ثابتة داخل مشهد اجتماعي خصوصي[4]"

دون التعرض إلى المسائل الفنية دات الإختصاص في التاريخ أو الأركيولوجيا، نحاول من خلال هذا المقال تحليل الأبعاد الاجتماعية لهذه العملية مفترضين أنّها يجب أن تشمل القاعدة الاجتماعية من خلال الجمعيات العلمية والأهلية ثم تعميم معرفة التراث والوعي به لدى الأفراد.

يجدر الإنطلاق من منظومة مراحل الإعراف بالتراث التي فصلها Davallon : « Les gestes de patrimonialisation »[5]. وعلى الرغم من أن باحثين آخرين قد حاولوا حصر هذه المراحل إلاّ أنّنا لاحظنا أن ما قدمه هذا الباحث هو الأكثر دقة وتكاملا وخدمة لفرضيات مقالنا.

[4] - DAVALLON, Jean, *Comment se fabrique le patrimoine?* Sciences humaines, Hors-Série. 36, 2002, p.p.74-77.
[5] - DAVALLON, Jean. (2006). Le don du patrimoine, une approche communicationnelle de la patrimonialisation. Paris : Lavoisier. p126.

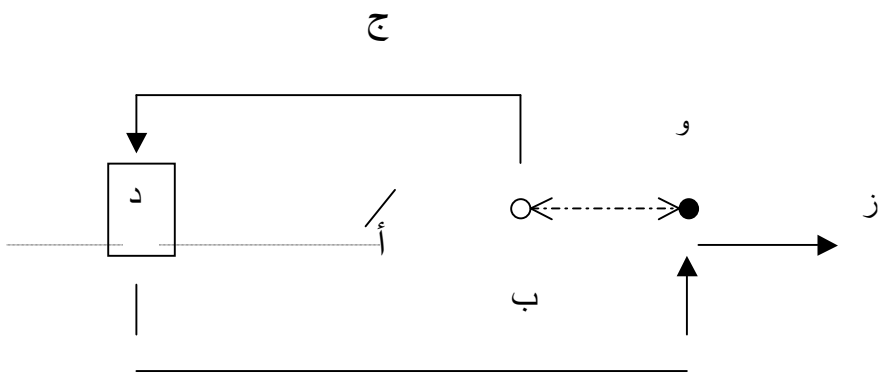

أ. قطيعة: الإختفاء الجزئي أو الكلي.

ب. الإكتشاف

ج. اثبات أصلية المكتشف

د. اثبات وجود الإطار التاريخي

ه. تمثيل المكتشف للإطار التاريخي

و. عرض المكتشف للعموم

ز. ضرورة تمرير الإكتشاف للأجيال اللاّحقة

يمكن تقسيم هذه المراحل إلى ثلاثة محاور رئيسية. يتمثل المحور الأول في فكرة الإكتشاف (والتي تعرض لها umberto Echo قبل Davallon). وهو ما يفترض قطيعة ما تسبق انطلاق السيرروة. ويهم المحور الثاني احداث الصلة بين موضوع الإكتشاف والإطار التاريخي المعني. أمّا المحور الثالث فهو ذا طابع تواصلي يتمثل في عرض المكتشف، وخاصة ضرورة تمريره إلى الأجيال اللاّحقة. لذلك فإنّ هذا المحور هو الأهم في خدمة مقالنا. فهذه العملية تجعل تاريخ المجموعة متداولا في ما بينها. كما تجعله من ضمن مقوماتها، ومن ضمن عناصر تواصلها مع المجموعات الأخرى، وكذلك تميزها عنها، أي أنّها تساهم في صنع هويتها المنفردة. إنّ عملية التواصل التي أشرنا إليها لا تستجيب إلى نفس القواعد الصارمة العملية للمراحل الأولى للاكتشاف، بل إنّها تنسجم مع النسق الاجتماعي الذي يتطور بتطور طرق الاتصال، وتزهر أينما يزدهر

النشاط الإجتماعي وحراك التبادل الفكري، فيأخذ في ذل مرة أشكالا جديدة بتجدّد وسائل الاتصال. وهو ما يعطي للتراث بعدا متميزا في صبغته الثقافية والسوسيولوجية.

وفي خارج هذا الحراك الثقافي والسوسيولوجي يكون اجراء الترتيب أو التصنيف الذي غالبا ما تحتكره الدولة كإجراء كلاسيكس للحفاظ على الهوية التاريخية أمام امكانية البقاء بمعزل عن هذا النوع من الحراك، بما يضعف الصبغة الثقافية والسوسيولوجية التي تبحث عنها. خاصة أنّنا قد لاحظنا في هذا النظام بتونس تعدد المؤسسات المتدخلة بما لا يقل عن ست مؤسسات. وبقراءة النصوص المنظمة لتدخل هذه المؤسسات، يصعب تحديد المسؤوليات والصلاحيات في غياب آليات التنسيق والبعد الاستراتيجي. كما لاحظنا في النظام التصنيف وجود امكانية سحب هذه الصبغة (أي التراث) عن بعض العقارات التي كانت مصنفة بواسطة أوامر صادرة عن رئيس الجمهورية الذي يحتكر الإجراءين من ذلك وجود ثلاثة عشر أمرا لسحب التصنيف بين سنتي 1995 و2007 تهم الموقع التاريخي لقرطاج أمام ثلاثة أوامر فقط لتصنيف معالم أخرة خلال نفس الفترة. وإذ نبين من خلال هذا هشاشة النظام المعتمد، فإنّنا نستدل عليه أيضا ببعث لجنة بحث في تلك النصوص وهو يدعم فكرة أن هذا الإجراء لم يخلو من الشوائب والشبهات ويكون بذلك تصنيف المعالم التراثية في حاجة لذلك النشاط الاجتماعي والجمعياتي ال أشرنا إليه.

الهوية كهاجس اجتماعي

إذا كان الإحتفاء بالمعالم التاريخية يرجع إلى عصر النهضة بأوروبا، فإن ديوان العرب ومنذ الجاهلية إتخذ من بين أغراضها الوقوف على الأطلال في مطالع الأشعار والمعلقات. ذلك لأن الإفتخار بالمدن والممالك شكل وجها من وجوه الإحساس بالإنتماء ومن نصيب الشعوب في تاريخ أسلافها من فعل حضاري وفكري. يستوعب عنصر الإنتماء هذا جزءا كبيرا من معنى الهوية فهي مجموعة الخصائص التاريخية والثقافية التي تجعل الفرد أو المجموعة تنزل نفسها ككينونة مستقلة وخصوصية وأن الآخر ينزلها بنفس تلك المنزلة.

يرى محمد عابد الجابري، أن الهوية هي مجموع الذكريات والإدراكات والقيم والرموز والخلق وفعل التغيير في التاريخ والتي عملت مجموعة ما على الحفاظ عليها بشكل يجعلها تكتسبها كمميزات يتقاسمها أفرادها[6]. ولعل المعلم التاريخي (محور هذا المقال) كشاهد مادي في هذا الإطار يعد أحد أهم هذه المقومات. وإن استيعاب الموروث بشكل فاعل وفردي يجعل هذا الفرد يتأمل فيه وقد يعيد انتاجه بأشكال أخرى وهو فحوى مسؤولية المجتمعات في تشكيل حاضرها ومستقبلها عبر التأمل في تاريخها. لذلك نستنتج أن الثقافة كوجه من وجوه الوعي الإنساني هي بالأساس وعي لهوية ما وبمدى تأثيرها على الهويات الأخرى وتأثّرها بها.

يتصل هذا المعنى بما تناوله الجابري عندما عبر على "أن انشغال الإنسان بتراثه هو انشغال بذاته" حيث ارتأى مسؤولية رئيسية للباحث في أن يلتزم " بأكبر قدر من الموضوعية وأكبر قدر من المعقولية" حيث جعل الموضوعية في معنى الحقيقة العلمية المحضة بينما فسر المعقولية بجعل التراث معصرا للمجموعة المعنية به ووصله بها أي اخضاعه لآليات العصر في سياق معرفي اجتماعي وتاريخي. وهذا ما يحقق من جديد معنى اتصال الثقافة بالهوية.

ركّز Jean Pierre Warnier على اختزالا الهوية "في الانتماء الى تركيبة (أو مجموعة) اجتماعية ما[7]". وبسحب هذه المعاني على الواقع السيبراني الذي أصبح يسيطر على المشهد التواصلي فإنّ رواد الأنترنيت الذين يقضون الساعات أمام حواسيبها ليسوا بمنئي عن هذه الحاجة الملحة وهي الانتماء فإن أغلب نشاطهم يقوم أساس الانتماء الى شبكات تواصل تبرز من خلالها الهويات الفردية والجماعية. يتأثر سلوك مستعملي الأنترنيت بنفس عناصر التواصل الإنساني منها التأثر بقاعدة القرب وكذلك الحاجة إلى اعتراف الآخر ثم إلى التأثير فيه وهي كلها تقوم على رؤية الفرد لهويته. ونحن نلاحظ أن مستعمل الأنترنيت ينشغل في مرحلة أولى بالبحث داخل العالم السيبراني على خصوصيته ومقومات هويته ليحقق معنى الإنتماء بالتواصل مع أقرب دائرة اجتماعية له. في حين أنه في مرحلة ثانية يسعى إلى التفاعل ثم الفعل في المجال السيبراني فتراه يعلق ويتقاسم ويعجب ويصور وينشر ويتصور بدوره تأثيثه الخاص بهذا المجال ويساهم في انجاز محتواه.

[6]- ABED Al-Jabri Mohamed, Le patrimoine et de la modernité. Édition : Bibliothèque Renaissance, Université du Caire, i 1-2001.

[7] - WARNIER Jean-Pierre, Patrimoine et mondialisation, éd. La Découverte, Paris, 2008.

الذكاء الجماعي في التعامل مع التراث وعلاقته بالفضاء

يقول ابن خلدون، "الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء[8]" يبرز هنا معنى الوحدة الزمنية في تاريخ الشعوب وهو يجعل بذلك كل جيل أمام نوعين من المسؤولية تتمثل الأولى في تملك واستيعاب الموروث والمحافظة عليه. أما الثانية فتتمثل في تمريري ذلك الموروث الى الأجيال اللاّحقة. ولا تتوقف مهمة توريث المعالم والآثار على شرط الوجود المادي لتلك المعالم حيث أصبح التقدم التكنولوجي قادرا على محاكاة تلك المعالم بما في إطارها التاريخي من مظاهر الحياة الاجتماعية، وذلك حتى بعد اندثار تلك المعالم، فأصبح بذلك يتجاوز الإطار الزماني والمكاني الأصلي إلى إطار زماني ومكاني ذا أبعاد جديدة لامادية. والإنسان، حسب ابن خلدون، يكمل ذاته الطبيعية المنقوصة، حيث أن الحياة الحضرية هي التي تصنع الانسان عبر تفكيره ونشاطه الاجتماعي. لذلك فإنّ كل مجموعة مجبولة على تحمّل مسؤولية اثراء الفضاء الذي تعيش فيه. ونركز هنا على معنى الخصوصية المحلية والوعي في ارتباطه بذلك الفضاء.

يتعمق Jean-yves Andrieux في هذا المعلم بالإشارة الى عناصر الحضارة المنفردة التي تتميز بها المجموعة حتى في حجمها المحلي، حيث يأخذ التراث شكل الهوية بارتباطه بمعنى القرب بالحياة اليومية لكل مجموعة ثم ينزل الكاتب هذه المعطيات على الفضاء الجديد للتراث والهوية كفضاء لا مادي: « L'immatériel est son nouveau territoire ». عندما يتملك الفرد التراث المادي في فضائه المحلي والجغرافي يكون قد تملك هوية ثقافية حيث يكون العنصر المعنوي، وهو الوعي بذلك التراث، وهو العامل الفاعل لإدراك ذلك التملك. إلاّ أن هذا الفرد وأمام انفتاحه على الفضاء السيبراني يواجه المسألة يشيء من الاختلاف، فيكون من جديد أمام ضرورة البحث عن هويته، أي مجاله الخاص من هذا العالم الإفتراضي، حتي تتقلب كل عناصر الهوية وأيقوناتها إلى عناصر لا مادية، وأكثر من ذلك يكون مجبورا عملا بما سبق إلى الحصول على اعتراف الآخر حيث لا يكتفي بالبحث عن هويته الموجودة ماديا، وإنّما يكون أمام مسؤولية صنع تلك الهوية من جديد في صبغة رقمية. وهنا، يبرهن الفرد، وكذلك المجموعة، على مدى ذكائهما، حيث أنّهما أمام مهمة أكثر تعقيدا، تستوجب مهارات خاصة من جهة، ووعي أشد من خصوصية وسط هذا الفضاء المعولم من جهة أخرى وإلاّ فإنّ ذلك الفرد،

[8] -IBNKALDOUN, Abd El Rahmen, *La Muqaddima,* Bayrout, Dar El Kallem, 1978, p.3.

وتلك المجموعة، سيكتفيان إلى الهوية الانسانية، وإلى استهلاك هوية الآخر. تصنع الطرافة المبنية على الخصوصية، إلى جانب العنصر الجمالي في بناء المعالم المرقمنة، هوية جذابة داخل الفضاء السيبراني، تمر من المحلية إلى العالمية.

تجريد المحامل من طابعها المادي

يمر الإنتقال من الهوية الثقافية إلى الهوية الرقمية عبر تجريد المحامل من طابعها المادي، وخاصة منها الكتاب. فبعد تعدد المحامل، من الممغنطة إلى الإلكترونية إلى المنشورة عبر الشبكات، تحوّل التراث والمعالم التاريخية إلى محتوى لا مادي، أي أنّه تحول من تراث مادي إلى تراث لا مادي، فأصبح بذلك ييسر التراسل ويتيح تقاسم المحتوى لأغراض مختلفة.

إنّ استعمال الصورة والصوت والمؤثرات الضوئية يتيح الآن امكانية استبدال الزيارات الميدانية بزيارات افتراضية للمواقع الأثرية، بل انه يمثل اثراء من الناحية المعرفية حيث تقدم هذه الصيغة صورة متكاملة عن الإطار التاريخي والثقافي الذي زامن المعلم التاريخي.

تعتبر Bernadette Dufrene أن هذه الزيارات الافتراضية تدعم بصفة خاصة العلاقات الاجتماعية: "إنّ حضور المؤسسات التراثية على الشبكات ينعكس من ناحية على الأشكال الجديدة المعتمدة في عرض التراث ومن ناحية أخرى على ارساء علاقات اجتماعية جديدة في إطار عملية تواصل يتخلّى فيها الزائر عن مجرد صفة المتلقي ليتحول إلى مواطن يشارك فعليا في حياة تلك المؤسسات[9]".

ومن ناحية أخرى، جعل الثقل الإداري وكذلك ثقل الإستثمار في الترميم أو اتمام الحفريات، الباحثين والمهتمين بالتراث يتوجهون نحو استعمال وسائل محاكاة الواقع عبر التصوير ثلاثي الأبعاد وهو ما أنتج بروز مفهوم " الواقع الإفتراضي" (La réalité virtuelle) وهي في واقع الأمر تجريد للأثر نفسه في طابعه المادي، لقد أصبح المحتوى الالكتروني من أهم مصادر المعلومة. وبتواتر الرجوع إليه، والتصاقه بالحياة اليومية، أصبح أهم رافدا من روافد ثقافة الفرد، حتى أن وسائل السمعي البصري والإبحار والتفاعل عبر الأنترنيت أصبحت ثقافة في حد ذاتها. إلاّ أنّه يجدر بنا التفكير دائما بأن هذه الطرق الجديدة

[9] - DUFRENE Bernadette; IHADJADENEV MADJID et BRUKMANN Denis, Numérisation du patrimoine Quelles médiation ? Quels accès ? Quelles cultures ?, Paris Hermann, P.122.

للعرض (عرض التراث على الرغم من سهولة تداولها لا تعفي المصمم من مسؤولية كبرى وهي التوثيق لذاكرة الجماعات في خدمة بماء هويتها في تمظهرها الجديد.

التراث الإفتراضي

تعد إعادة تركيب المعالم التاريخية (La reconstitution des monuments) بإستعمال التكنولوجيا المتطورة، عملية معقدة في مراحلها. فهي تطرح اشكاليات عديدة أمام المصنف والباحث متصلة مباشرة بالهوية، وخاصة في تحديد أبعادها داخل فضاء وماني ومكاني غير معتاد. لئن أدت هذه الممارسة إلى تجريد المعلم التاريخي في طابعه المادي، فإنها تقدم زادا معرفيا مهما أثناء عرض ذلك المعلم فالمصمم يجتهد لاستكمال الأثر عبر تحليل ما يقدمه هذا الأخير من مؤشرات بالمعطيات التاريخية والثقافية التي تستكمل صورته عبر عرض مظاهر نمط الحياة من لباس وتقاليد وذوق وحتى الطبقات الاجتماعية. وهو يختزل في النهاية عناصر الهوية.لذلك، أمكن تسمية نتائج هذه الممارسة "الحقيقة الافتراضية". تتميز هذه الكينونة الجديدة المركبة من لفظتين قد يبدوان متناقضين بكونها تتيح للفرد نشاطا حسيّا وحركيا (Sensori-motrice) ومعرفيا في تفاعله مع العالم الافتراضي الذي قد يكون خياليا أو رمزيا أو في شكل محاكاة للواقع. أدى تطور محتوى التراث الافتراضي بالفضاء السيبراني إلى تجارب جديدة يعيشها الزائر إلى هذه المواقع الافتراضية التي أصبحت تجعل من المحتوى والزائر مجالا واحدا للتفاعل، حيث أصبح ذلك الزائر يبحر في مساحة الاكتشاف والمعرفة. وإلى جانب الزيارات الافتراضية عن بعد تستعمل التكنولوجيا بوسائطها المتاحة للزوار لإثراء الزيارات الميدانية للمتاحف والمعالم، حيث برز المعلم الهجين Le monument hybride الذي يعمل على اكساء المعلم الأثري بالطابع المعماري المستكمل بمحاكاة بطريقة الزخرفة والأدوات والأثاث حسب الفترة أو الفترات التاريخية، مما يولد متعة اضافية لدي الزائر ومما يجعل المعلم شاهدا ضريحا وواضحا عن مكونات ثقافة الشعوب والهوية ويرى Pierre Nora أن تكون الهوية أو صنعها يتم عبر اختزال التراث في حقل الذاكرة، إذ يصبح شيئا فشيئا عنصرا من أهم عناصر الثقافة[10]. ونحن نشهد اليوم مع تطور التكنولوجيات والفضاء السيبراني كفضاء عام، تحولات في طبيعة الثقافة في اتجاه ثقافة رقمية، حيث تتطور مؤشرات الهوية، ومنها مؤشرات الموروث (Indices) إلى رموز (Symboles). إنّ العلامة الافتراضية (Le signe virtuel) هي أول مكوّن يواجه تحديات

[10] - Pierre Nora (dir.), *Les lieux de mémoire*, Tome 1, Paris, Gallimard, 1997, p. 17.

عملية التواصل الخاصة بالتراث، يقول Jean Claude Golvin: " إنّ معالم دقة يمكن أن تكون مصورة يدويّا، أو فوتوغرافيّا، أو ممثلة بأي شكل من الأشكال، إلاّ أنّه سينقصها دوما شيء ما، فنحن لا نستطيع أن ننتزع من الحقيقي إلاّ عددا من العلامات ولا يتسنّى لنا التواصل إلاّ عبر العلامات[11]".

وإذا انطقنا من أنّ عملية التواصل في بالأساس عملية تجريد أي أنّها تعتمد الترميز باختزال الوقائع والأشياء في رسائل تقوم على علامات اصطلاحية فإن البناء الافتراضي أصبح قادرا على ضمان هذه العملية بأكبر قدر من الوضوح والدقة وذلك باعتماده على الصورة بالمكان الأول كأقرب علامة للإدراك حيث تتواصل مباشرة مع الصورة الذهنية. ولا يفوتنا التفكير هنا أن الهوية التي يعتقد الفرد في انتمائه إليها ليست إلاّ ما يتراكم في الذاكرة من علامات، تكون في جزء كبير منها عبارة عن صورة ذهنيّة. إنّ هذه الكفاءة للعلامة الافتراضية تجعلها في متناول الجماهير مع الحفاظ على الجانب التواصلي والمعرفي في صيغة مشخصنة (personnalisée). وهذا، ما يتيح لهذه العلامة الافتراضية استقلالها عن العالم الحقيقي بشكل تدريجي مثلما تصوره Peirce[12] بتحول المعلم من مؤشر (Indice) إلى أيقونة (Icone) ثم إلى رمز(Symbole). لذلك نعتبر أن العلامة الافتراضية هي أول مكون في بناء الهوية الرقمية.

خاتمة

لقد أمكن استنتاج أن التراث هو عملية اكتساب للموروث. لذلك فإن هذه العملية في حاجة إلى حراك اجتماعي ذات طبيعة ثقافية وتثقيفية. مثلت تقنيات المعلومات والاتصال في هذا الاتجاه محفزا فعالا، حيث أصبح لها هذا الدور الاجتماعي بالأساس. عند تمثيل المعالم التاريخية ونشرها عبر شبكة الأنترنيت تكون هذه المعالم قد شاركت في عملية تواصلية رغم أنّها موضوع العملية فيصبح المعلم وسيطا (Médiateur) لتبليغ الهوية.

إنّ وجود المعلم في شكله الحقيقي والآني، والذي غالبا ما يكون في حالة شبه اندثار، لا يمثل سوى مؤشر، أي أنّه يشير الى وجود أثر انساني مرّ عبر ذلك المكان ولكن في زمن مغاير. لذلك فإن ذلك المؤشر يبقى في حاجة الى قراءة وبحث، ثم

11 - Jean-Claude GOLVIN, « L'IMAGE DE RESTITUTIONET LA RESTITUTION DE L'IMAGE Vol. I » Architecte DPLG, Urbaniste DIUP, Directeur de Recherche au CNRS Institut AUSONIUS, Université de Bordeaux III.

12 - http://www.signosemio.com/peirce/semiotique.asp

إلى عملية بثّ إلى المتلقى. وإذ أنّنا نقصد بالمتلقي في هذا المقال، العموم أي الجماهير العريضة التي يجب أن تعي وتكتسب ثراءها المحلي أولا ثم الوطني والإقليمي وحتى العالمي فإنّ عملية البث تكون أقرب ما يكون لهذا المتلقي في شكل صورة حسية ثم ذهنية حيث يمكن أن تكمل الأولى الثانية بمضامين معرفية تتجاوز الصورة وبهذا ينتقل المؤشر الى رمز وتتأسس قيمة أيقونية للمعلم ذات بعد لا مادي ويؤسس لهوية رقمية قائمة الذات. انّ تميزها هذا يرجع كونها ليست مجرد مكونات موروثة بصفة تلقائية، نولد لنراها أمامنا، أو ندرسها عند الصغر عبر التلقين، وانّما هي هوية نبحث عنها في فضاء آخر ونصنعها في ذلك الفضاء حيث يشارك الأفراد والجماعات في بلورتها فتعطي للوجود بعدا آخر لا مادي أولا ومنفتحا كل الانفتاح على الآخر ثانيا.

Bibliographie :

1. AL-BIRUNI, Abd Rahmen *Al-Atar al-baqiya ‘an al-qurun al-haliya (Traces des siècles passés)*, rédigé vers l'an mille Copie du XVIe siècle, p51.
2. ABED Al-Jabri Mohamed, Le patrimoine et de la modernité. Édition : Bibliothèque Renaissance, Université du Caire, i 1-2001.
3. ANDRIEUX Jean-Yves, Patrimoine et Histoire, Paris, Belin, 1997, 283 pages.
4. AMOUGOU, Emmanuel. (2004). *La question patrimoniale. De la “patrimonialisation” à l’examen des situations concrètes*. Paris : L’Harmattan, p.25
5. BALANDIER Georges, Anthropologie politique, éd. PUF, Paris, 1967.
6. DUFRENE Bernadette; IHADJADENEV MADJID et BRUKMANN Denis, Numérisation du patrimoine Quelles médiation ? Quels accès ? Quelles cultures ?, Paris Hermann, P.122.
7. DAVALON Jean, Comment se fabrique le patrimoine ?, in Revue Sciences humaines hors série n°36 mars/avril 2002, pp.74-77.
8. DAVALLON, Jean. (2006). Le don du patrimoine, une approche communicationnelle de la patrimonialisation. Paris : Lavoisier. p126.

9. Jean-Claude GOLVIN, « L'IMAGE DE RESTITUTIONET LA RESTITUTION DE L'IMAGE Vol. I » Architecte DPLG, Urbaniste DIUP, Directeur de Recherche au CNRS Institut AUSONIUS, Université de Bordeaux III.
10. LENIAUD Jean-Michel, «Essai sur le patrimoine», 1992, MONGES. P2
11. IBNKALDOUN, Abd El Rahmen, *La Muqaddima,* Bayrout, Dar El Kallem, 1978, p.3.
12. P. Fuchs et G. Moreau. Le Traité de la Réalité Virtuelle, 2001, 2003, 2006, 2009. Presse de l'Ecole des Mines de Paris, Troisième Edition. Mars 2001.
13. Pierre Nora (dir.), *Les lieux de mémoire*, Tome 1, Paris, Gallimard, 1997, p. 17.
14. Pouillon Jean, *Fétiches sans Fétichisme*, Paris, François Maspero, 1975, 351 pages
15. WARNIER Jean-Pierre, Patrimoine et mondialisation, éd. La Découverte, Paris, 2008.